إشكاليّة الضّاد والظّاء عند اللّغويّين العرب

أ. محمّد بن محمّد حرّاث

جامعة تيزي وزو

اهتمّ العلماء قديما بحروف العربية عامة، وبحرفي الضاد والظاء خاصة وقد يكون سبب ذلك صعوبة نطقهما على من دخل الإسلام من غير الأمة العربية وهذه الصّعوبة شهد بها العلماء اللغويون وغيرهم في كتبهم، يقول الصّاحب بن عبّاد (358هـ): "إذْ كانا حرفين قد اعتاص معرفتهما على عامّة الكُتَّاب؛ لتقارب أجناسهما في المسامع، وإشكال تأسيس كلّ واحد منهما، والتباس حقيقة كتابتهما"[1].

وكذلك يقول ابن مكّي الصّقلّي (501هـ): "فأمّا العامة، وأكثر الخاصّة، فلا يفرّقون بينهما في كتابٍ ولا قرآن"[2].

ويقول ابن الجزري (833هـ): "والضّاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسُر على اللسان مثله، فإنّ ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يُحسنه فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخّمةً ومنهم من يشُمُّهُ الزَّايَ، وكلّ ذلك لا يجوز"[3]. مع أنّ ابن جنّي (392هـ) يجيز إبدال الظاء ذالا[4]، يقال: تركته وقيذا ووقيظا، واستدل كذلك بقوله تعالى: ((وَالْمَوْقُوذَةُ)) [المائدة: 03] بالذال، وقال بأنها هي الأصل.

واكتسب حرف الضاد أهميته – إلى جانب وعورة نطقه– أنه حرف تمتاز به العربية عن غيرها من اللغات، ولا يوجد عند الأعاجم في لغاتهم، إلا القليل[5] وبذلك سمّيت العربية لغةَ الضّاد. وفي هذا يقول المتنبي:

وبهم فخر من نطق الضا *** د وعوذ الجاني وغوث الطريد

والظاء كذلك قيل بأنه للعرب خاصة، لا يشاركهم فيه أحد[6].

وربما اكتسب الحرفان وعورتهما –والضاد خاصة– لصعوبة مخرجهما ودقّته، وفي ذلك يقول ابن سينا في مخرج الضاد: "وأمّا الضّاد فإنّها تحدث عن حبْسٍ تامّ عندما يتقوّم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس، إذا أُطلِقَ أُقيمَ في مسلك الهواء رطوبةٌ واحدةٌ أو رطوبات، تتفقَّعُ من الهواء الفاعل الصّوت، وتمتدّ عليها، فتحبسه حبسا ثانيا، ثمّ تنشقُّ وتتفقَّأُ، فيحدث شكل الضّاد"[7].

ثمّ يقول عن مخرج الظاء: "وإنْ كان حبسٌ كالإشمام بجزء صغير من طرف اللسان، وإمرارُ الهواءِ المطلق بعد الحبس على سائر سطح اللسان على رطوبته، وحُفِّزَ له جملةً، سُمِعَ الظّاءُ"[8].

أجمع العلماء أنّ هذا الباب يحتاج القارئ إليه، ولا بد من معرفته. وقد عمل المتقدمون فيه كتباً نثراً ونظماً، ومن أحسن من نظم فيه الشيخ أبو عمرو الداني في رباعيته المشهورة، التي تحدث فيها عن أصول الظاءات في القرآن العظيم؛ قال:

ظَفِرَتْ شُوَاظُ بِحَظِّـــهَا من ظُلْمِنَا *** فَكَظَمْتَ غَيْظَ عَظِيــمِ مَا ظَنَّتْ بْنَا
وَظَعْنتُ أَنْظُـــرُ فِي الظَّهِيرَةِ ظُلَّةً *** وَظَلَلْـــتُ أَنْتَظِرُ الظِّلالَ لِحِفْظِنَا
وَظَمِئْتُ فِي الظَّلْمَا فَفِي عَظْمِي لَظًى *** ظَهَرَ الظِّهَارُ لأَجْلِ غِلْظَةِ وَعْظِنَا
أَنَظَــرْتَ لَفْظِــي كَــيْ تَيَقَّــظَ فَظَّهُ *** وَحَظَرْتَ ظَهْرَ ظَهِيرِهَا مِنْ ظَفْرِنَا[9]

ذكر في هذه الأبيات الأربعة جميع ما وقع في القرآن من لفظ الظاء، وميزه مما ضارعه لفظا، وهي اثنتان وثلاثون كلمة، وقيل جميع ما في القرآن من ذلك ثمانمائة وأحد عشر موضعا. وكان من أحسن ما ألّف في هذا كتاب: (رفع الحجاب عن تنبيه الكتاب) للإمام أبي جعفر الحلبي. وكذلك نظّم الحافظ عبد الرزاق الرسعني منظومة في ظاءات القرآن كذلك أسماها: درة القاري[10]. وجاء في المصادر أنه ورد في القرآن العظيم من الظاء ثلاثة وخمسون وثمانمئة، ترجع إلى واحد وعشرين أصلا، أمّا الضّاد فقد جاء في القرآن العظيم في أربعة وثمانين وست مئة وألف موضع، ترجع إلى واحد وثمانين أصلا.

ومن بين أهم الكتب –كذلك– التي درست ظاءات القرآن وضاداته، نجد كتاب: (المصباح في الفرق بين الضّاد والظّاء في القرآن العزيز نظما ونثرا)، لأبي العبّاس أحمد بن حمّاد بن أبي القاسم الحرّاني، وبنى مؤلَّفَه على مقدِّمةٍ صغيرة جاء فيها: "نظرتُ في أصول ظاءات القرآن، فوجدتُها في اثنين وثلاثين أصلا، وهذا أكثر ما جاء من الأصول، فنظمتها في أربعة أبيات من الشّعر، وقدَّمتُ قبل الأربعة الحاوية للأصول، عشرةَ أبيات، نبّهتُ فيها على مخرج الضّاد ومخرج الظّاء"[11].

ثمّ قال بعد أن ذكر هذه الأبيات: "لمّا جمعتُ أصول ظاءات القرآن الكريم في هذه الأربعة الأبيات، جاءت على غير ترتيب ما جاء في كتاب الله، عزّ وجلّ فأحببتُ أنْ آتي بها على ترتيب ما جاء في القرآن العزيز، الأوّلَ فالأوّلَ"[12]. ثمّ بدأ بشرح الأصول الاثنين والثلاثين، وبعد أن انتهى منها قال: "وقد نظمتُ ما ذكرتُهُ من الأصول في قصيدٍ من الشّعر مرتَّبًا على ترتيب الأصول المذكورة"[13]. وذكر أربعة وخمسين بيتا. ثمّ ختم كتابه ببيتين ذكر فيهما ثمانية أصول ظائية، وثمانية أصول ضادية، وكلّ لفظةٍ من هذه الألفاظ تقال بالظّاء فيكون لها معنى، فإذا قيلت بالضّاد كان لها معنى آخر، وهو ما يسمّى بالنّظائر[14].

وذُكْرَ أيضا أنّ لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري رسالةً سماها: (زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء). ثمّ نظم الفروخي منظومته المشهورة في الكلمات التي تُنطَقُ بالظاء تارة، وبالضاد أخرى، وقد جمع في منظومته ستا وثلاثين كلمةً، لها معنى بالظاء، وبالضاد معنى آخر[15]. يقول في أولها:

وقد نظمتُ عِدَّةً من الكَلِمْ *** في الظاءِ والضّادِ جميعا فافْتَهَمْ
فإنّها مختــلفاتُ المعــنى *** يعرفــها من بالعلــوم يُعنَى

ومن أمثلة ما يقول:

فالغيظُ ما يُعرَفُ للإنســـــانِ *** والغيضُ غيضُ الماءِ في النّقصانِ
واعلم بأنَّ الظَّهرَ ظهرُ الرّجل *** والضّهر والضّاهر أعلى الجَبَــلِ
والظَّنُّ في الإنسانِ إحدى التّهَمِ *** وهكذا الضَّنُّ البخيـــــلُ فافهمِ

وحنظلٌ نبـــــتٌ كثيرٌ يُعرَفُ *** والحنضـــلُ الظّلُّ المديدُ يُؤلَفُ

والقيظُ حرٌّ في المصيفِ ثائرُ *** والقيضُ في البيضةِ قشْرٌ ظاهرُ.

وكذلك فعل ابن مالك في كتابه (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد)، وذكر الكلمات المتفقة مبنى المختلفة معنى مما تُكتَب بالظاء تارةً وبالضاد أخرى. ولا بأس أن ننقل بعض الأمثلة من كتابه:

"**أضَلَّ وأظَلَّ**: فأمّا (أضلّ) بالضّاد: فأضلَّ فلانٌ فلانا: إذا أغواه؛ ضدّ هداه... وأضلَّ الرّجلُ الدّارَ والدّابةَ: إذا لم يهتدِ إليهما... وأضَلَّ الميّتَ: إذا دفنه ووراه... أمّا (أظلَّ) بالظّاء: فأظلَّ الشّهرُ: إذا أشرَفَ، وأظلَّ الأمرُ: إذا قَرُبَ، وأظلَّ الحائطُ والشّجرُ: إذا سترا بظلّهما، وأظلَّ القومُ: ساروا في الظّلّ... والظّلّ الظّليل: الدّائم الظّلّ الذي لا تنسخه الشّمس... والظّلّ: العِزُّ والمَنَعَة..."[16].

وكذلك فعل –أيضا– أبو الحسن علي بن أبي الفرج القيسي الصّقلّي في كتابه (في معرفة الضّاد والظّاء)، وقد قسّمه أربعةَ أبواب:

الباب الأوّل: باب الضّاد؛ وتناول فيه 169 لفظةً مع مشتقاتها.

الباب الثّاني: باب الظّاء؛ وتناول فيه 41 لفظةً مع مشتقّاتها.

الباب الثّالث: ما جاء بالضّاد وله معنى بالظّاء؛ وتناول فيه ستّة ألفاظ.

الباب الأخير: ما جاء بالضّاد وبالظّاء على معنى واحد؛ وتناول فيه لفظتين فقط[17].

وكذلك وجدتُ أبا القاسم سعد بن علي الزنجاني، وضع رسالةً في الفرق بين الضاد والظاء[18]؛ إذْ فرَّقَ بين كلّ الكلمات التي تُكتبُ بالظّاء وما يميّزها عن كتابتها بالضّاد.

وأمّا أبو الفرج محمّد بن عبيد الله بن سهيل النّحويّ، فقد وضع مصنّفًا أسماه (الضّاد والظّاء)، وقد تحدّث فيه عن مخرج الضّاد، وعدد الحروف التي يُذكَرُ فيها الضّادُ والظّاءُ، والمشترك والمختصُّ والخالي من هذه الحروف، ورتّب الألفاظ على حروف المعجم، من غير النّظر إلى جذر الكلمة، ومراعاة الثّواني

والثّوالث. قال ابن سهيل: "عدّة الحروف التي يُذكَرُ فيها الضّادُ من حروف المعجم سبعةَ عشر حرفا؛ وهي: الألف، والباء، والتّاء، والجيم، والحاء، والخاء، والدّال والرّاء، والضّاد، والعين، والفاء، والقاف، والميم، والنّون، والهاء، والواء. وعدّة الحروف التي يُذكَرُ فيها الظّاء من حروف المعجم سبعة عشر حرفا أيضا؛ وهي: الألف، والباء، والتّاء، والجيم، والحاء، والشّن، والظّاء، والعين، والغين، والفاء والقاف، والكاف، واللام، والميم، والنّون، والواو، والياء"[19].

وها هو يوسف بن إسماعيل بن عبد الجبار بن أبي الحجاج المقدسي، يضع مصنّفا، يُفرِدُ فيه القول عن الظّاء، وعن مجيئها في كلام العرب، ووقوعها فاءً مرّةً، وعيناً ثانيةً، ولاما أخرى. ثمّ تحدَّثَ عن مخرج الظّاء وعن صفته، فقسّم كتابه بذلك إلى ثلاثة أبوب بحسب ما تقدَّم.

وهو كتابٌ ذو قِيمة قَيِّمة؛ ذلك أنّه أوسعُ كتابٍ في الكلمات الظّائيّة، إذْ انفرد بذِكر كلمات ظائيّة لم تذكرها كتب الضّاد والظّاء المنشورة، كما انفرد بالنّقل عن كُتُبٍ لم تصل إلينا، ككتاب التّنبيهات على الجمهرة لعلي بن حمزة، وكتاب الأفعال لابن طريف الأندلسيّ، وكتاب الهادي للقطب النّيسابوري، وكتاب الصّناعة للعكبري، وكتاب تكملة الصّناعة لعبد اللطيف البغداديّ. كما انفرد برواية أشعارٍ تخالفُ رواية دواوينهم المطبوعة[20].

يقول المقدسي عن كتابه: "هذا كتابٌ جمعتُ فيه حروف الظّاء المستعملة في كلام العرب، بحسب الشّهرة والإمكان، ومنحصِرٌ قسمة الكتاب في ثلاثة أبواب بحسب وقوعه فاءً، وعيناً، ولامًا"[21]. ثمّ قال واصفا مخرج الظّاء وصفته: "اعلم أنّ مخرج الظّاء ما بين طَرَف اللّسان وأطراف الثّنايا، وهو حرفٌ مجهور؛ والجهر: إشباعُ الاعتماد في مخرج الحرف، ومنع النّفس أنْ يجريَ معه. وهو أيضا حرفٌ مُطبَق؛ والإطباق: أنْ ينطبِقَ على مخرجِ الحرف من اللّسان، ما حاذاهُ من الحَنَكِ. وهو من حروف الاستعلاء أيضا؛ والاستعلاء: ارتفاعُ اللّسان إلى الحَنَك، أُطْبِقَتْ أو لم تُطْبَقْ. وهو حرفٌ رِخْوٌ؛ والرّخاوة: جريانُ الصّوتِ به فلا ينحصِر"[22].

ثمّ يردُّ على ابن دُريد الذي رأى أنّ الظّاء حرفٌ للعرب خاصّة، وقد استدلَّ المقدسيُّ بقول أبي القاسم علي بن حمزة البصريّ، بأنّ "هذا سهوٌ منه، وإنّما الواجبُ الضّادُ، فأمّا الظّاء فموجودٌ في كلامِ بعضِ الأمم"[23]. وأنّه قد سُمِعَ النَّبَطُ والبربرُ يقلبون الظّاءَ –إذا وقعَ في كلامهم– طاءً. ثمّ قال: والظّاءُ أقلُّ دورًا في الكلام، وأنزرُ استعمالا من غيرها، وحِفظُ القليلِ أسهل، والتّحرّز من الغلط فيه وقد جمِعتُ الكلمات المستعمل فيها الظّاء فلم تبلغ المئة"[24]. ثمّ في الأخير: "وتدبَّرتُ ما في التّنزيل من الظّاءات، فوجدتُ فيه إحدى وعشرين كلمةً، منها ما في الباب الأوّل سبعُ كَلِمٍ، ومنها في الثّاني سِتُّ كَلِمٍ، ومنها في الثّالث ثمانيَ كَلِم. وأومأتُ خلالَ الألفاظ الظّائيّة إلى أشباهها من الضّاد"[25]. ثمّ يمضي المقدسيُّ في تبيان فصول مجيء الظّاء على أبوبها الثلاثة في كلام العرب وآي التّنزيل.

وقد ألّف –أيضا– أبو عمرو الدّاني مصنَّفًا في الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ وفي المشهور من الكلام، وقد بيّن في أوّل كتابه أهمية معرفة الفرق بينهما في كتاب الله، إذْ قال: فإنَّ ممّا يكمُلُ به لطلبة القرآن وتجويد التّلاوة ويحصُلُ لهم به اسم الدّراية: معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ، واستعمال اللّفظين بكلّ واحدٍ منهما على هيئته، وإخراجه من موضعه على حقيقته"[26]. ثمّ يقول: "ومتى لم يعرف القارئ الفرق بينهما، ولا استعمل ذلك فيهما في قراءته، وسوّى بينهما في لفظه، صارَ لاحنا، مبدِّلاً للتّلاوة، ومغيِّرًا لمعنى كلام الله، عزّ وجلّ، لاختلاف ما بينهما"[27]. وقد ذكر في كتابه الفرق بين الضاد والظّاء في المخرج، وحال كلّ واحد منهما. وبيّن أنّ الضّاد تخرج من حافّة اللّسان، وأنّها حرفٌ مستطيلٌ مجهور، وأمّا الظّاء فمخرجها ما بين طرف اللّسان، وأطراف الثّنايا العليا، وهي حرفٌ مجهورٌ رِخوٌ مستعلٍ، "فالفرق بينهما إنّما هو المخرج والاستطالة لا غير، وهي بعد ذلك موافقة لها في الجهر والرّخاوة والإطباق والاستعلاء"[28]. ثمّ شرع بعد هذا الباب في تفصيل القول في الضّاد والظّاء في القرآن العظيم كلّه.

ثمّ نعرّج إلى أبي بكر علي الشيبانيّ الموصليّ، الذي وضع كتابا لا يختلف عن سابقيه في موضوع الضّاد والظّاء، أسماه: الفرق بين الضّاد والظّاء، وهو في شكله معجمٌ يعرِضُ لمعاني الكلمات ذوات الضّاد، ثمّ ذوات الظّاء، مبيّنا معانيها وشارحا وممثّلا، ومستنبطا، وقد اتّبع فيه مؤلّفه منهجا واضحا؛ إذْ جعله في قسمين: قسمٌ خاصٌّ بباب الضّاد، وقسمٌ خاصٌّ بباب الظّاء، ورتّبهما على حروف الهجاء[29].

ثمّ ألّف أبو القاسم سعد بن عليّ الزّنجانيّ مؤلّفًا في الفرق بين الحرفين أسماه: الفرق بين الظّاء والضّاد، تناول فيه تسعة وعشرين لفظا بالضّاد مرّة وبالظّاءِ أخرى. وذكر معنى اللّفظ حين يأتي بالظّاء، وحين يأتي بالضّاد. فيقول – مثلا– في باب (تفسير ما يُكتَبُ بالضّاد والظّاء): "فمن ذلك: العضُّ والعَظُّ؛ فأمّا العظّ، الظّاء، فمن اشتداد الزّمان والجدب، يقال: عظّهم الزّمان، وعظّتهم الحرب: إذا اشتدّ ذلك عليهم، وأثّر فيهم...، والعضُّ، بالضّاد، معروف: وهو شدُّكَ على الشّيء بأسنانك"[30]. وكذلك يمضي مع بقية الألفاظ إلى آخر كتابه.

وفي الفرق بينهما أيضا، ألّف ابن الصّابوني الصَّدَفيّ الإشبيلي، مصنَّفًا سمّاهُ: (معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء)، فقد ذكر في كتابه من نظائر الضّاد والظّاء سبعةً وعشرين لفظا بالضّاد، ونظيره من الظّاء سبعةُ وعشرون كذلك[31] فذكر اللّفظ بالظّاء ووضّح معناه، ثم ذكر اللّفظ بالضّاد ووضّح معناه المختلف عن الأول.

ومن أهمّ الكتب التي اختصّت بالظّاء فقط دون الضّاد، نجد كتاب (حصر حرف الظّاء)، لأبي الحسن عليّ بن محمّد بن ثابت الخولانيّ المقرئ، وقد ذكر فيه المؤلِّف ثلاثا وتسعين كلمةً، موزَّعةً على حروف الهجاء على التّرتيب المغربيّ وصنّفها على الوجه الآتي: (الباء: ستّ كلمات)، (الجيم: ستّ كلمات)، الحاء: تسع كلمات)، (الخاء: ثلاث كلمات)، (الدّال: أربع كلمات)، (الرّاء: كلمة واحدة) (الظّاء: عشرون كلمة)، (الكاف: أربع كلمات)، (اللاّم: خمس كلمات)، (الميم: كلمتان)، (النّون: أربع كلمات)، (العين: تسع كلمات)، (الغين: ثلاث كلمات)

(الفاء: أربع كلمات)، (القاف: كلمتان)، (الشّين: ستّ كلمات)، (الواو: أربع كلمات)، (الياء: كلمة واحدة). أمّا حروف: (الهمزة، والتّاء، والثّاء، والذّال والزّاي، والطّاء، والصّاد، والضّاد، والسّين، والهاء)، فليس فيها شيء كما أشار المؤلّف [32].

ونذكر مثالا عن حرف واحد يُغني عن بقية الحروف، يقول: "وأمّا الدّال ففيها أربع كلمات؛ وهي: الدّأظ: بمعنى الدّفع، والدّعظ: وهو النّكاح، والدّلعماظة: وهي النَّهِمَةُ، والادّلِنْظاءُ: وهو الغلظ"[33].

وكذلك فعل صِنوهُ أبو الرّبيع سليمان بن أبي القاسم التّميمي السرقوسي الذي اهتمّ بالظّاء كذلك فصنّف: (ظاءات القرآن)، إذْ ذكر إحدًى وعشرين مادّةً يرجع إليها ثلاثٌ وخمسون وثمانمئة لفظةً ظائيّة وكان غرض المؤلّف جمعَ جميع ما ورد في القرآن العظيم من حروف الظّاء. وكتابه هذا قائمٌ على شرح ثلاثة أبيات، وهي:

ظفرتُ بحظٍّ من ظُلُومٍ تَعاظَمَتْ *** ظَوَاهِرُهُ للنَّاظِـــــرِ المَتَيَقِّظِ
ظَمِئْتُ فَلَمْ تَحْظُــرْ عَلَيَّ ظِلَالَهَا *** فَظَاظَةُ أَلْفَاظٍ ولا غَيْظَ وُعَّظِ
ظَنُونٌ تَلَظَّى للكَظِيــمِ شُوَاظُهَا *** تُغَلِّظُ عُتْبَ الظَّاعِنِ المُتَحَفِّظِ[34]

وقد ذكر جميع الألفاظ التي جاءت بالظّاء، وذكر معها ما يقابلها مع الضّاد من معنى.

ومن أهم الكتب القديمة والحديثة التي رأيتها أولت اهتماما لمسألة الضاد والظاء في العربية هي:

1. شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، لمؤلف مجهول.
2. أبو عمرو الداني الأندلسي ورسالته في الظاءات القرآنية، لمحسن جمال الدين.
3. الإرصاد في شرح المرصاد الفارق بين الظاء والضاد، للجعبري.
4. الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، لابن مالك الظائي.

5. الاقتصاد للفرق بين الذال والضاد والظاء، لأبي عبد الله الداني.
6. حصر حرف الظاء، للخولاني.
7. زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء، للأنباري أبي البركات.
8. الظاءات في القرآن الكريم، لأبي عمر الداني.
9. ظاءات القرآن للسرقوسي.
10. الفرق بين الضاد والظاء، للصاحب بن عباد.
11. الفرق بين الحروف الخمسة، لابن السيد البطليوسي.
12. معرفة الضاد والظاء، للصّقلي.
13. منظومة الفروخي في الكلمات التي تُنطَق بالظاء والضاد، للعلامة الأديب محمد بن أحمد الأواني الفروخي.

والضّاد تخرج من حافة اللسان مع ما يليه من الأضراس، ومن الناس من يتكلّفها من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر[35]. وفي حساب الحروف فإنّ الضّاد هو الحرف الخامس عشر في الترتيب الهجائي العربي، والسادس والعشرون في ترتيب الأبجدية العربية، ويساوي عدديا الرقم (700) في حساب الجمل. وأمّا الظّاء فهو الحرف السابع عشر في الترتيب الهجائي، والسابع والعشرون في ترتيب الأبجدية العربية، ويساوي عدديا الرّقم (900) في حساب الجمل[36].

وفي مخرج الضّاد ألّف شمس الدّين بن النّجّار كتابا وسمه: (غاية المراد في معرفة إخراج الضّاد)، فقد رأى النّاس في عصره لا يحسنون إخراج الضّاد من مخرجه الصّحيح، فبعض الحبشة يخرجون الضّاد كاللام المفخّمة، وأكثر الشّاميين وبعض أهل الشّرق يخرجونها ظاءً معجمة، وأكثر المصريين وبعض أهل المغرب يخرجونها ممزوجةً بالدّال، أو بالطّاء المهملة، فيصيرُ لفظُها أقرب إلى الدّال والطّاء، ورأى أنّ هذا لا يجوز لتالي كتاب الله تعالى، وهذا ما جعله يصنّف هذا الكتاب، "ليَعلَم بذلك التّالي لكتاب اللّه تعالى، والمجوِّدُ له معرفةَ التّلفّظِ بهذا الحرف الصّعب الذي أعيا كثيرًا من النّاسِ إخراجُه"[37].

وقد ذكر ابن النّجّار في مؤلَّفِهِ الظّواهر الصّوتيّة التي تخالف النّطق الصّحيح لحرف الضّاد في عصره، ثمّ حلّل أسبابها، وردّ على مرتكبيها، ثمّ وضّح بعد ذلك كيفيّة النّطق بالحرف، وكذا ذِكْرِ أهمّ صفاته. فيقول في مخرجه: "فإذا أردتَ معرفةَ مخرجه، فتأتي به ساكنًا لا متحرّكًا؛ لأنّ الحركةَ تقلق الحرف عن موضعه ومستقرّه، وتجذبه لوجهة الحرف المشابه، ثمّ تُدْخِلُ عليه همزة الوصل مكسورةً؛ لأنّ السّاكن لا يمكن الابتداء به، ثمّ اصغِ إليه، فحيثُ انقطَعَ صوته كان مخرجه"[38]. معناه أن تنطق بالضّاد على شكل: (اِضْ)، فحيث انقطع هواءُ النّطق فذاكَ مخرجُ الضّاد.

وذكر من صفاته أربعا: الاستعلاء، والاستطالة، والإطباق، والجهر. وفيه من صفات الضّعق: الرّخاوة. ثمّ بيّن كيف أنّ الضّادِ قد تشتبه ببعض الحروف فميّزها عن كلّ حرفٍ، ووضّحَ، وفصّلَ. وبيّن أنّ أصل امتلاك النّطق السّليم بالضّاد، وتمييزه عن غيره، إنّما يكون "برياضة اللّسان، وكثرة التّكرار، وأصل ذلك التّلقّي عن أول الإتقان، والأخذ عن أئمة هذا الشّأن"[39]، وهذا لا شكّ فيه.

ومن اللّغويين من قارب بين الضّاد والظّاء، حتى كاد يجمع بينهما، ومنهم علي بن غانم المقدسيّ، الذي وضع مؤلّفا وسمه: (بغية المرتاد لتصحيح الضّاد) ومن دوافع تأليفه قوله: "لمّا رأيتُ بمحروسة القاهرة، التي هي زين البلاد، كثيرا من أفاضل النّاس، فضلا عن الأوغاد، يخرجون عن مقتضى العقل والنّقل في النّطق بالضّاد... فأردتُ مع طلب جمعٍ من الإخوان، وإشارةٍ من بعض الأعيان أن أزيل الغبن عن عين الرّشاد، وأفيض من أعين الدلائل العقلية والنّقليّة مما يروي كل صادٍ، فشرعتُ فيه معترفا بقصر الباع، وقلّة الزاد"[40].

ثم قال مبيّنا موضوع كتابه: فليُعلَم أنّ أصل المسألة أنّهم ينطقون بالضّاد ممزوجةً بالدّال المفخّمة، أو الطّاء المهملة، وينكرون على من ينطق بها قريبة من الظّاء المعجمة"[41]. معناه أنّه يدافع عن من يطق بالضّاد قريبة من الظّاء، منكرا في الوقت نفسه تكلُّفَ الضّاد حتّى تخرج دلا مفخّمةً، أو طاءً.

وبذلك حوى كتابه هذا على مقدّمة وفصلين وخاتمة؛ تحدّث في المقدّمة عن مخرج الضّاد، وعن صفاتها، التي نصّ عليها العلماء الأثبات، ثمّ عنون الفصل الأول: (فيما يدلّ بالمعقول على أنّ اللّفظ بالضّاد كالظّاء المعجمة هو المقبول) والفصل الثّاني: (فيما يدلّ بالتّصريح على أنّ التّلفّظ بالضّاد شبيه بالظّاء هو الصّحيح، وهو المنقول من كلام الفحول، المتَلَقَّى كلامهم بالقبول). فهو قدّم الحجج عقلا ونقلا على أنّ النّطق بالضّاد على شكلٍ قريب من الظّاء صواب صحيح.

وأمّا في خاتمة كتابه، فقد ذكر فيها بعض التنبيهات على ما قد يتوهّمه قارئ الكتاب، منها قوله: "إنّه ليس مرادي بكون الضّاد شبيهةً بالظّاء، وقريبةً منها، كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج، بحيث يخفى الفرق بينهما على المجيد لفنّ التّجويد"[42]. أي أنّه لا يقصد الضّاد الضّعيفة التي تكلّم عليها اللّغويّون.

ثمّ يقول في آخر كتابه: "وإذا علمتَ ما بينهما من الاشتراك، وما نصّ عليه العلماء من الاشتباه، تحقّقتَ أنّ من ينطق بالضّاد من مخرجها الخالص، مع تحصيل صفاتها المميّزة لها حتّى عن الظّاء، فهو في اعلى مرتب النّطق بها من الفصاحة، ودونه من ينطق بها من مخرجها، مشوبة بالظّاء، لكن من مخرجها وبينهما نوعُ فرق، ودونه من ينطق بها ظاءً خالصةً، ومن يشمّها الذّال، ومن يشمّها الزّاي، ومن يجعلها لامًا مفخَّمةً، وكذا من ينطقُ بالضّاد طائيَّةً، فهو من أسفل المراتب النّطقيّة، بالنّسبة إلى من سبق ذكره"[43].

وأما في معنى الحرفين، فإنّ للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) تعريفا آخر[44]، فيقول في حرف الضاد، إنّ معناها الهدهد إذا رفع رأسه وصاح، قال متمم بن نويرة:

كأنّي ضادٌ يومَ فارقتُ مالِكا *** أنوءُ إذا رمتُ القيامَ وأكسلُ

ويقول في الظاء: إنّ معناها ثديَ المرأة إذا تثنّت. قال لبيد بن ربيعة العامري:

أُنكِحْتُ من حيٍّ عجوزًا هَرِمَهْ *** ظاءُ الثّدي كالخباءِ هَذْرَمَهْ

ويقول المستشرق هنري فليش: "ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم، يحتمل أنه كان ظاء جانبية؛ أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة، وقد اختفى هذا الصوت، فلم يعد يُسمع في العالم العربي، وأصبح بصفة عامة، إمّا صوتا انفجاريا، وهو مطبق الدال، وإمّا صوتا أسنانيا هو الظاء"[45].

وأمّا ما يُروى من أنّ النبيّ – صلى الله عليه وسلم– قال: ((أنا أفصح من نطق بالضاد)) فهو حديث لم يُذكر في كتب الحديث الصحيحة، وقال عنه ابن الجزري: "لا أصل له ولا يصحّ"[46]. وقد ذكره رمضان عبد التواب وناقشه، ببديعٍ من القول، وعميمٍ من النّفع[47].

وحرف الضاد الذي ننطقه اليوم هو غير حرف الضاد الذي كان ينطقه العرب قديما، كما وضّح ذلك رمضان عبد التواب[48]، بناءً على وصف علماء النحو واللغة والقراءات لمخرج حرف الضاد وصفته. فالضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة كما هي الحال في الضاد المعاصرة، وإنّما من حافّة اللسان أو جانبه، وأنّها كانت صوتا احتكاكيا رخوا، في حين أنّ الضّاد اليوم انفجاريّة شديدة.

فقد عدّها الخليل في حيّز الجيم والشّين، وهما من الأصوات الغارية، التي تخرج من الغار، وهو سقف الحنك الصلب. يقول الخليل: "ثمّ الجيم والشّين والضاء"[49]. وكذلك يقول سيبويه: "ومن بين أول حافة اللسان وما يليهما من الأضراس مخرج الضاد"[50]. ويوضح ذلك المبرّد قائلا: "ومخرجها من الشِّدق فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر"[51].

يتّضح من هذه النّصوص الفرق بين الضّاد الأصيلة قديما، والضّاد التي ننطقها حديثا، وأنّها كانت جانبيّة، وليست أسنانية لثويّة، وكذلك لم تكن انفجارية بل احتكاكية رخوة، بدليل قول سيبويه في تقسيم الحروف: "ومنها الرِّخوة وهي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضّاد..."[52]. وعلى هذا

"فالضاد التي ننطقها اليوم ليست هي الضّاد القديمة التي كانت عند العرب القدماء وإنّما هي تطوّر عنها"[53].

وعن هذا الفرق يقول المستشرق الألماني (برجشتراسر) بأنّ الضّاد الآن "شديدة عند أكثر أهل المدن، وهي رخوة، كما هي الآن عند أكثر أهل البدو، ومع ذلك، فليس لفظها البدويُّ الحاضر هو لفظها العتيق نفسه، وإنّما مخرج الضاد من حافة اللسان، ومن القدماء من يقول: من جانبه الأيسر، ومنهم من يقول: من الأيمن، ومنهم من يقول: من كليهما. فمخرجها قريب من مخرج اللام، الذي هو أيضا من حافة اللسان، وذلك يدلّ أنّ الضّاد كانت تشبه اللام من بعض الوجوه والفرق بينهما هو أنّ الضّاد من الحروف المطبقة كالصاد، وأنّها من ذوات الدّويّ واللام غير مطبقة، صوتية محضة، فالضاد العتيقة حرفٌ غريب جدًّا، غير موجود في لغة من اللغات، إلا العربية، ولذلك كانوا يكنون عن العرب بالنّاطقين بالضّاد. ويغلب على ظنّي أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أنّ للضّاد نطقا قريبا جدا عند أهل حضر موت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أنّ الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الأسبان بـــ (Ld) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم، ومثال ذلك أنّ كلمة (القاضي) صارت في الأسبانية: (Alcalde). ومما يدلّ أيضا أنّ الضّاد كانت في نطقها قريبة من اللام أنّ الزّمخشري ذكر في كتابه المفصّل أنّ العرب كانت تقول: (اِلطَجَعَ) بدل (اضطجع). ونشأ نطق الضّاد عند البدو، من نطقها العتيق، بتغيير مخرجها من حافة اللسان إلى طرفه، ونطقها عند أهل المدن نشأ من هذا النطق البدوي، بإعماد طرف اللسان على الفكّ الأعلى، بدل تقريبه منه فقط، فصار الحرف بذلك في نطقه شديدا، بعد أن أنْ كان رخوًا"[54].

ويفترض (كانتينو) ثلاثة افتراضات لهذه الضاد القديمة، وهي:

أ- نطق قريب من الدّال المفخمة ذو زائدة لامية.

ب- نطق قريب من الظّاء ذو زائدة انحرافية.

ت- نطق قريب من الزّاي المفخّمة ذو زائدة انحرافيّة.

ثمّ يرجّح الثّاني من الافتراضات[55].

ويرى إبراهيم أنيس أنّ الضّاد القديمة أقلّ شدّةً من الضّاد الحديثة، "إذْ معها ينفصل العضوان المكوّنان للنّطق انفصالا بطيئا نسبيًّا، ترتَّبَ عليه أنْ حلَّ محلَّ الانفجار الفجائيّ انفجارٌ بطيء، نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النّوع من الأصوات، وما يليه من صوتٍ ليّن، فإذا نُطِقَ بالضّاد القديمة، وقد وليتها فتحةٌ مثلا، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصّوتين، تميّز فيها كلّ منهما تميّزا كاملا"[56].

ويظهر من هذا -كما يرى إبراهيم أنيس- أنّ الضّاد القديمة كانت عصيَّة النّطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتّى على بعض القبائل العربيّة في شبه الجزيرة. وفي هذا يرى إبراهيم أنيس أنّ الذي نستطيع تأكيده هنا، هو أنّ الضّاد القديمة قد أصابها بعض التّطوّر حتّى صارت إلى ما نعهده فيها اليوم، وأنّ هذا التّطوّر قد تمّ في القرن الثّامن الهجري، عصرِ ابن الجزري.

وقد ذكر بعضهم صوتا ذا صلةٍ بالضّاد، أسموه: (الضّاد الضّعيفة)، وربّما قصدوا ما عنيناه بالضّاد القديمة، وذكروا كذلك صوتا آخر ذا صلة بالظّاء أسموه: (الظّاء التي كالثّاء) وهي ظاءٌ فقدت جهرها، فانقلبت إلى ثاء مطبقة، وتظهر في كلمة (ظالم) -مثلا- إذا نطقناها (ثالم) بتفخيم الثّاء تفخيما كبيرا[57]. وأرى أنّ الأولى إنّما هي الضّاد لكن تطورت في شكلها، وأمّا الثّانية فإنّما هي انحراف عن الظّاء وليس حرفا آخر.

ويبقى أن نقول في الأخير، بأنّ حرفي الضّاد والظّاء قد نالا اهتماما كبيرا من علماء اللّغة العرب، وذلك لأهمّية معرفتهما، وضرورة إتقانهما.

الهوامش:

1 - الفرق بين الضاد والظاء، الصاحب بن عباد، تح: الشيخ حسن آل ياسين، بغداد، 1958م ص 03.

2 - تثقيف اللسان، ابن مكي الصّقلّي، تح: عبد العزيز مطر، القاهرة، 1966، ص 91.

3 – النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تح: محمد سالم محيسن، ج 01، ص 310.

4 – ينظر: سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح: حسين هنداوي، ج 01 ص 228.

5 – ينظر: المصدر نفسه، ج 01، ص 213.

6 – ينظر: المصدر نفسه، ج 01، ص 227.

7 – رسالة أسباب حدوث الحروف، للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا، تح: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، ص 76.

8 – المصدر نفسه، ص 80.

9 – ينظر: شرح أبيات الداني الأربعة في أصول ظاءات القرآن، لمؤلف مجهول، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 06، 07.

10 – ينظر: درة القاري منظومة في ظاءات القرآن الكريم، للحافظ عبد الرزاق الرسعني، تح: عبد الهادي الفضلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة العاشرة، العدد 30، جمادى الأولى/ شوال، 1406هـ.

11 – المصباح في الفرق بين الضاد والظاء في القرآن العزيز، لأبي العباس أحمد بن حماد بن أبي القاسم الحرّاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 13.

12 – المصدر نفسه، ص 14.

13 – المصدر نفسه، ص 22.

14 – ينظر مقدّمة محقق كتاب المصباح، المصدر نفسه.

15 – ينظر: منظومة الفروخي في الكلمات التي تنطق بالظاء والضاد، تح: أحمد الزاوي، دار الفتح، بيروت، لبنان، ط 01، 1404هـ/ 1984م.

16 – الاعتماد في نظائر الظاء والضاد، لجمال الدّين محمد بن مالك الطائي الجياني، تح: حتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 19، 20.

17 – ينظر: كتاب في معرفة الضاد والظاء، لأبي الحسن علي بن أبي الفرج بن أحمد القيسيّ الصّقلّيّ، مطبوع ضمن كتاب مجموع: نصوص محقّقة في اللغة والنّحو، تح: حاتم صالح الضّامن، جامعة بغداد، 1991م، ص 315.

18 – قام بتحقيق الرّسالة محمد سعيد المولوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط 01 1411هـ/ 1991م.

19 – الضاد والظاء، ابن سهيل، حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سورية، ط 01 1428هـ/ 2004م، ص 14.

20 – ينظر: الظّاء، يوسف بن إسماعيل المقدسي، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق سوريّة، ط 01، 1425هـ/ 2004م، ص 11.

21 – المصدر نفسه، ص 16.

22 – المصدر نفسه، ص 16.

23 – المصدر نفسه، ص 17.

24 – المصدر نفسه، ص 20.

25 – المصدر نفسه، ص 20.

26 – الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله عزّ وجلّ وفي المشهور من الكلام، لأبي عمرو الدّاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سوريّة، 1427هـ/ 2006م، ص 29.

27 – المصدر نفسه، ص 29.

28 – المصدر نفسه، ص 33.

29 – ينظر: الفرق بين الضّاد والظّاء، أبو بكر الشّيباني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر سورية، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 11.

30 – الفرق بين الظّاء والضّاد، لأبي القاسم سعد بن علي الزّنجاني، تح: حاتم صالح الضّامن دار البشائر، دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2004م، ص 24، 25.

31 – ينظر: معرفة الفرق بين الضّاد والظّاء، لابن الصّابوني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار نينوى، دمشق، سورية، ط 01، 1426هـ 2005م، ص 07.

32 – ينظر: حصر حرف الظّاء، لأبي الحسن الخولاني، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2003م، ص 08، 09.

33 – المصدر نفسه، ص 15، 16.

34 – ظاءات القرآن، لأبي الرّبيع سليمان بن أبي القاسم التّميميّ السّرقوسيّ، تح: حاتم صالح الضّامن، دار البشائر، دمشق، سوريّة، ط 01، 1424هـ/ 2003 م، ص 13.

35 – ينظر: الدر المرصوف في وصف مخارج الحروف، لأبي المعالي محمد بن أبي الفرج فخر الدين الرازي، تح: غانم قدوري الحمد، مجلة الحكمـــــة، العدد 25، جمادى الثانية، 1423هـ ص 237.

36 – ينظر: استخدامات الحروف العربية (معجميا، صوتيا، صرفيا، نحويا، كتابيا) سليمان فياض، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 75، و 83.

37 – غاية المراد في معرفة إخراج الضّاد، شمس الدّين بن النّجّار، تح: طه محسن، مجلّة المجمع العلمي العراقي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج 02، مجلد 39، 1408هـ/ 1988م 264.

38 – المصدر نفسه، ص 265، 266.

39 – المصدر نفسه، ص 267.

40 – بغية المرتاد لتصحيح الضّاد، علي بن غانم المقدسي، تح: محمد جبار العبيد، مجلة المورد وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، المجلد 18، العدد 02، 1989م، ص 120.

41 – المصدر نفسه، ص 121.

42 – المصدر نفسه، ص 129.

43 – المصدر نفسه، ص 130.

44 – ينظر: الحروف، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: رمضان عبد التواب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، ط 01، 1389هـ/ 1969م، ص 30.

45 – العربية الفصحى، هنري فليش، تر: عبد الصابور شاهين، بيروت، 1969م، ص 37.

46 – النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري، تح: عي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 01، ص 220.

47 – ينظر: مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، لرمضان عبد التواب، مقال متاح على الشّابكة، ص 224 وما بعدها.

48 – ينظر: المرجع نفسه، ص 215.

49 – كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ج 01، ص 58.

50 – الكتاب، لسيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، ط 02، 1402هـ/ 1982م، ج 04، ص 433.

51 – المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة 1415هـ/ 1994م، ج 01، ص 329.

52 – الكتاب، لسيبويه، ج 04، ص 434، 435.

53 – مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء، رمضان عبد التواب، ص 216.

54 – التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 02، 1414هـ/ 1994م، ص 18، 19. (بتصرف).

55 – ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ/ 1997م، ص 349.

56 – الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، ص 52.

57 – ينظر: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشّروق العربي، بيروت، لبنان، ط 03، ج 01، ص 44، 45.